محاولة في الكشف عن أمراضنا الفكرية و الإجتماعيــة "الحالة العراقية"... أنموذجا القـريبة" للحالة العربستانية "

د. علــي الـــوردي..... في الطبيعــة البشرية

تقديم: ســعـد البــزاز

في الحقيقة إنني و منذ فترة حاولت أن أتطرق الى طرح أفكار العالم الإجتماعي الكبير المرحوم الدكتور علي الوردي، و الذي يعتبر من أكبر علماء الإجتماع العرب الذين تطرقوا الى المجتمعات العربية و العالمية، الذي قدم أفكارا و حلولا شافية للأمراض التي تعانيها مجتمعاتنا العربية، و بشكلٍ خاص حول المجتمع العراقي، و في هذا المجال وجدت ضمن متابعاتي لكتب الوردي، بأن المجتمع العربي في عربستان يتشابه مع المجتمع العراقي و تناقضاته بشكلٍ كبير.

لذا أحببت أن أقدم لإخوتي و أخواتي القرّاء في الشبكات الأحوازية المختلفة هذه الدراسات و الأفكار التي كان قد طرحها الدكتور علي الوردي على مدى خمسون عاما من التواصل المعرفي و في كشف الأسباب و نقاط الضعف في التفكير العربي و العراقي بشكل خاص، و هذا ما جعلني من أن أقدم بين يديكم هذه الأفكار خدمـة لجيلنا و أجيالنا القادمة لكي نتفحص و نتدارس ذاتنا و أمراضنا المجتمعية التي تولّدت منذ فترة ليست بقصيرة و تكاثرت في بيئتنا لأسبابٍ شتى، نود أن نخوض فيها علّنا نستطيع أن نتعظ من هذه الأمراض و بالتالي من أن نقدم حلولا و علاجا للحيلولة دون تفاقم هذه الامراض، و خلق بيئة إجتماعية صحية نسبيا للوصول الى بر الأمان و بأقل الخسائر المعنوية و المادية.

و في هذا المجال سأحاول أن أقدم هذه الدراسة التي أجراها الكاتب و المثقف المعروف: سعد البـزّاز و الذي يشغل حاليارئيس تحرير صحيفة " الزمان " و التي تصدر في لندن، و مؤخرا أصبحت ايضا تصدر من داخل العراق، بعد أن تمّ العدوان على العراق تحت الأمرة الأمريكية.

لقد وصلت الى نتيجه مفادها: بأنني لا أستطيع أن أقدم مقدمة و دراسة حول شخصية الدكتور علي الوردي الغنية عن التعريف العلمي، بسبب عدم قدرتي على مثل هذه الدراسات وانا ما زلت أحبو في طريق العلم و المعرفة، و أحاول قدر إمكاني من أن أتعلم و أستفيد، و ها أنا أحاول و أحاول.

و في هذا الإطار سأقدم لكم هذا الجهد الذي قام به الأستاذ: سعد البزّاز، و الذي قام بإجراء مقابلة مهمة مع الدكتور علي الوردي، قبل وفاته... و أن هذا الجهد في الواقع عمل مميز و غني، و أستطيع أن أقول بأنه:

" الحصيلة النهائية " التي كان قد توصل اليها الدكتور الوردي من جهة، و بسبب الكهولة التي كان قد وصل اليه " الوردي " و الواضحة من تاريخ و توقيت هذه المقابلة الفريدة.

و سأضع بين يديكم هذا الجهد، وعلى شكل حلقات مستمرة ، لنتعرف على أفكار " الوردي " و في كيفية تشخيصه و شرحه للأمراض المجتمعية الحاصلة و أسبابها ، و بالتالي تقديم العلاج و الحلول النسبية في التحرر منها .

<u>فإليكم هذا اللقاء و التعريف:</u>

" كان حريا أن يسير خلف جنازة الدكتور علي الوردي الذي قضى في صيف 1995 م عن إثنين و ثمانين عاما الآلاف من محبيه و خصومه ليودعوا أكبر عالم إجتماع في العراق بعد أن إستودعهم على تراث ضخم كان مثيرا للجدل خلال نصف قرن من الزمان، هو الأخطر في تكوّن المجتمع العراقي منذ نشوء الدولة الحديثة في هذه البلاد، غير أنّ لكل من الخصوم و المحبين أسبابا منعتهم من السير في جناوته بالآلاف، فلم يكن للخصوم أن ينحنوا تحية و إحتراما لمفكر كبير في بلاد غابت عنها تقاليد الحوار و بات من النادر إحترام الرأي الأخر و تحولت فيها الخلافات الفكرية الى حافات سكاكين تقسّم الناس، حتى النخبة منهم، فلم يعودوا قادرين على الإفصاح عن إحترامهم لمفكرين لم يتفقوا مع أفكارهم و دعواتهم... فحيثما لا يكون هناك إحترام للرأي الآخر يصبح التشبث بالخصام و النزوع الى الإيذاء بعضا من مظاهر الإنفصام العام في شخصية المجتمع .. أما محبو الوردي و تلامذته ، فعدا القلة ممن شارك في وداعه ، فلا شك أن الخوف من الإفصاح عن تابعيتهم الفكرية و العاطفية له قد شل أقدامهم عن الخروج الى الشارع في تظاهرة الوداع التي لن تعيد نفسها مرة أخرى ، فحيث يوجد رعب جماعي تزداد الهواجس و لا يعود بإمكان الناس الإفصاح عن هوياتهم الفكرية خشية تحملهم للأذى عن معتقداتهم و آرائهم ... بل و أهواء نفوسهم ..

في هذه اللحظة المشوّهة من التشظي في تركيبة العراق .. ودّع الدكتور الوردي مجتمعا شغلته تناقضاته و عيوبه ، فتصدى له بالبحث و خلّف وراءه ثلاثين مؤلفا منشورا و عددا غير منظور من التلامذة و المحبين المأخوذين بدعواته للإصلاح الإجتماعي ... كما خلف إرثا من الخصومة المزمنة مع

الحكومات التي تعاقبت على البلاد في أكثر من نصف قرن .. فهل كان من اعسير أن يحيا مفكر بشجاعته في بلاد الخوف حيث إعتاد الناس إظهار خلاف ما يعتقدون فأستقووا بالباطنية لإخفاء أرائهم و معتقداتهم ، بعد أن صار رأس المفكر مطلوبا للمقصلة .. كما هو رأس الجنرال الذي يحيك المؤامرات لقلب أنظمة الحكم ... ؟

إنها لظاهرة نادرة أن يكون مطلوبا وجود مفكرين و كتّاب و شعراء على مقاسات واحدة و تحت خطوط حمر لا يحق لهم رفع رؤوسهم بعدها .. حتى لا يخرج منهم المميزون ز الشجعان غير المألوفين ... و قد أدرك الوردي ميزة ذاته كرجل فوق الميول في مجتمع مأسور للتمحور الطائفي و الحزبي و المناطقي .. و إستشعر الأخطار المحدقة به من كل صوب ، فدارى بالحيلة و الصمت ساعات الخطر ، حتى غدت هذه الحيلة و غدا ذلك الصمت فنا لم يحترفه الوردي وحده .. بل إحترفه شعب كامل أسره الخوف و الحذر .

تنبع أهمية الوردي من إختياره التعامل مع أكثر عناصر التكوين الإجتماعي حساسيةً .. ألا و هي جذور الدافع الذي يتحكم بسلوك الفرد ، من حيث بيئته الجغرافية و الأخلاقية ، وهي مسألة كان من الطبيعي أن يثير الإقتراب منها ردود أفعال حادة ، لأن كثيرا من قرائه كانوا هم أنفسهم نماذج في المختبر الإجتماعي الذي أسسه بعد أن رفض اللإستسلام لجمود فكري سائد .. و على هذا الأساس فإنه يتكرس كنموذج متحرر من حالة الثبات و النمطية الناشئة عن قمع سلطوي من جهة و عن قهر إجتماعي صادر عن أفراد عاديين من جهة أخرى ..

إنّ من حق أي محلل إجتماعي أن يتعامل بحرية و طلاقة مع نماذجه التي يدخلها الى مختبره ، وقد تخرج هذه النماذج من حالات إجتماعية سائدة و صاحبة نفوذ ، غير أنّ هذا العمل سيثير حساسيتها ، حتى ليبدو أن بعض الأفراد يقاومون وضع أنفسهم تحت إضاءات التفسير و التحليل .. و لذلك يرفضون تلقائيا أن يكونوا نماذج للإختبار و المعاينة .. فمن أين كان الوردي سيجيء بنماذجه لو لم يأتِ بها من المجتمع العراقي ... من بغداد و النجف و الكاظمية و سامراء .. ؟

لقد تحاسى التنظير في المجهول ... و غير المعرّفة أسمائهم و أنسابهم .. بل ذهب ليقول إنّ الآتي من (المحلة) في بغداد أو من (القرية) في الجنوب أو من (البادية) في الغرب ... يتصرف على هذا النحو .. و دلالة ذلك .. هي الآتي ..

هنا ، لم يكن له أن يخشى من محاكم تفتيش في بلاد يوصف فيها الكاتب و المفكر الخارج عن الطوع بالجاسوسية و خيانة الأوطان و التناطح مع القيم .. و لم يسلم الوردي من النقد ختى عندما تهرّب من الحاضر و ذهب لإلتقاط حالاته من زمنٍ غابر ..

لقد كتب منتصف الثمانينات عن أبيه الذي رفض الإنخراط في الخدمة العسكرية ، فهاج وزير الإعلام يومئذٍ و إستدعى رئيس جريدو (العراق) التي نشرت مقالة الوردي ، ليتهمه بترويج ما يثبط من عزائم الجند و يهين العسكرية .. و لما سمع الوردي بما حصل .. رد ساخرا .. و مازحا بأن الوزير قد لا يكون أدرك غايته .. فهو بإيراده ما حدث لوالده .. كان يعتي أن أباه رفض الإنخراط في خدمة العلم قبل إستقلال البلاد و نشوء الدولة .. و أن الأمر يختلف عن حالة الأمة و هي تخوض حربا مع دولة أخرى .. و معنى ذلك أنه لم يخلص من اللوم حتى في إستشهاده بواقعة كانت تعود الى قرن مضى من الزمان .
و يومها سألتُ الوردي : ماذا ستفعل الحكومة بأبن خلدون لو كان مواطنا عراقيا .. ؟ فضحك و نصحني بعدم لفت الإنتباه اليه ، لانه هو الذي حذر من قدوم العوام من ريف متخلّف الى المدن ، و لأنه هو الذي تحدث عن أولئك الذين يجدعون أنوف أبناء عمومتهم و يبطشون بالقريب و البعيد و يتسلون بإيذاء الخلق و نشر الرعب .. و خاف الوردي .. و خُفت على ابن خلدون فلم نعد نذكر أسمه علانية .. لأنه مرشحا للإتهام بالإنخراط في مؤامرة لقلب نظام الحكم و قيادة تنظيم .. هـدّام . !!

لقد وجدتُ أمامي ، بعد الهزيمة في الحرب ، أن ثمة حاجة مضافة و متجددة للعودة الى الوردي ، لأن الهزيمة لم تكن نتاجا لقوانين الصراع الدولي و الإقليمي ، مما هو معروف و متداول ، بل كانت نتيجة لأداء سياسي أفرزته قيم إجتماعية و أخلاقية تحتاج الى المعاينة و التمحيص ، فالذي ذهب بالعراق الى الكارثة هم أشخاص جاءوا من بيئة إجتماعية محدودة ، ولم يكن العراق كله من ذهب بنفسه الى الكارثة مختارا برغبة الغالبية فيه ، أو بقرار نخبته من مفكرين ز مصلحين و دعاة تنوير و تحديث .. فقد كانت البلاد كلها ضحية أداء سياسي هشّ هو إنعكاس لقيم إجتماعية مهتزة .. و من الصواب البحث في الخلل الأخلاقي و الإجتماعي قبل البحث في قوانين الصراع على العراق و المنطقة التي التقت مع ناتج الخلل الصادر من الشريحة الإجتماعية المتسييدة على البلاد ..
و لم تعد المعضلة في نوع الخيار الأيدلوجي ، كأن تكون قوميا أم إسلاميا ، ماركسيا أم برجوازيا ، علمانيا أم سلفيا ، تقدميا أم رجعيا ، ثورويا أم محافظا .. إنها في ما هو أعمق من ذلك .. ألا وهو الى من العصبيات الضارة تنتمي .. و في أي منها تتخندق .. القبلية أم العائلة أم فخذ من عائلة .. أم حزب .. أم المنطقة .. أم الطائفة ..؟ .. و لماذا ضاقت الخيارات على هذا النحو في بلاد رحبة كانت قادرة من قبل على إستيعاب كل العصبيات ..؟..
لقد جاء العرب كلهم من أرحام القبائل ، وليس في ذلك عيب أو حرج ، لكن هذا الإنتساب لا يمنع من دراسة جذور الدافع العشيري و تحسس درجة التعصب له و تأثير ذلك على سلوك الفرد عند إنخراطه في الحياة العامة و ممارسة السياسة .. بل و الإستحواذ على السلطة ..

و لا أظن أن أحدا سيذهب الى الإعتقاد بأنني أتخذ من (المدينة) العراقية نموذجا يقبل التعميم عن قضية التصادم بين الحواضر و الأرياف في دول عربية أخرى ، فقد يكون هناك تشابه ، ينقص أو يزيد ، إلا أن إفتراض وجود تطابق و إستنساخ هو أمر مستبعد ، و لعل أكثر أمثلة التباعد وضوحا هو لبنان الذي كانت القرية فيه مركزا علميا و ثقافيا أيام تدهورت أدوار المدن و الحواضر الكبرى ، و كانت القرية اللبنانية أبعد ما تكون عن حال القرى المرتحلة في سوريا التي تعد أقرب البلدان اليها و أكثرها إلتصاقا بها ، كما لا يتطابق الأمر مع مصر أيضا ، حيث قاومت المدن نزوح المتريفين و عزلتهم بعيدا عن مراكزها لتبقيهم على أطرافها أحزمة فقر و حرمان ، كما كان الأمر بالنسبة لطهران التي سيجتها أحزمة الفقراء و غير المتعلمين الذين وجدوا في الثورة سنة 1979 فرصتهم لغزو جزر من حاضرة العاصمة الإيرانية .

أما في العراق فقد كانت الحاضرة المدينية ومزا للإستقرار و التنظيم و التنوير و الإنتعاش الثقافي، على العكس من الأرياف المتباعدة التي احتفظت بالآصرة المعنوية للعشيرة أو طائفة و أستُلبت لصالح الإقطاع في الجنوب البلاد و الرأس العشيري في شماله في حين إفتقدت أنماط التنظيم المديني مع ما يوفره من فرص للإنتعاش الثقافي و التحديث و التنوير.

و عندما يخص هذا الأمر العراق تحديدا، فإنّ العمق الزمني لتاريخ الحواضر فيه يكشف عن طاقة متاحة لاحتواء العصبيات و إذابتها في بوتقة مدن عريقة و كبيرة استطاعت على الدوام إنتاج قيمها الوسط التي تنأى عن التعصب و التحزب و التطرف و الغلو و المغالاة لتتيح في المجال لعلاقات جديدة مبنية على الأداء و الكفاءة... و لتخرج من الولاء العشيري إلى الولاء الوطني فيتغلب السِلم على العنف في العلاقات داخل الأسرة و الحي و المجتمع... فالسكان المتجاورون مع بعضهم الآخر في منازل مستقرة مبنية جوار بعضها البعض سيستنبطون مصالحهم المشتركة، بغض النظر عن البيئات الحضرية أم البدوية أم الريفية التي تحروا منها، فينشئون أسواقهم و منتدياتهم و مجالسهم و مدارسهم و أنظمة الخدمات في حياتهم و يتقاسمون فوائدها و يستشعرون الخطر الذي يتهددها كنظام مشترك للأمن..

كما يتهددهم كمجموعة بشرية متكافلة و متضامنة خارج العصبيات الطائفية و القبلية.. لأن حالة الثبات في المدن تلزم السكان بالانتماء إلى هذه الحواضر و ترغمهم على التصرف بنفس طويل يقبلون على مدياته مستويات من التنازل المتقابل حتى يتمكنوا من العيش مع بعضهم البعض ، على العكس من حالة اللا ثبات التي تميز بعض أجزاء الريف ، حيث لا توجد سوى عصبية معنوية تربط بين الأفراد على أساس الدم ، دون أن تكون هناك أواصر ناشئة عن الثبات الذي يستلزم السِلم بين الأفراد ... إذّ كان

الترحال متاحا في ليلة وضحاها ... مـع ما يستجلبه ذلك من فقدان الأمان و تكريس الخوف من الآخرين و استسهال اللجوء إلى القوة .

يتبع على شكل حلقات إنشاء الله
" فتابعونا "

ملاحظة:

ارتأينا أن نقدم هذا الكتاب لما فيه من معالجات قيمة تجاه الأمراض التي تستشري في المجتمعات و بالخصوص مجتمعنا الذي يعاني الكثير من هذه الأمراض، و ما يخصنا في هذا المجال هو شرح و كشف هذه الأمراض من خلال هذا البحث القيّم الذي وضعه عالم الاجتماع الكبير د . علي الوردي ، و بالتالي إيجاد العلاج اللازم لمثل هذه الأمراض .
فهذا البحث يوضح التشابه الكبير بين مجتمعنا العربستاني و المجتمع العراقي، مع الأخذ بعين الاعتبار: خصوصية كلٍ من المجتمعين وأيضا السلسلة التاريخية التي مرت و يمر بها كلٌ من المجتمعين .
ننشر هذا الكتاب على شكل حلقات خدمة للقرّاء و المتابعين العربستانيين، و نرجو أن تعم الفائدة منه لأكبر عدد ممكن من المتابعين.

عـادل السويدي
7 - أكتوبر - 2003